

د . حميدي أبوبكر الصديق

السنة الثانية ماستر

تخصص: تاريخ الجزائر الحديث

المقياس : تاريخ الجزائر الثقافي

**مفهوم المؤسسات الثقافية :** نقصد بالمؤسسات الثقافية تلك الهيئات أو المؤسسات أو الجهات التي كانت تخدم الحياة الثقافية والعلمية مباشرة (المباني :كالمدارس، والزوايا والمعاهد...) أو الممتلكات المختلفة للأوقاف التي تخدم طلبة العلم ومؤسساته، أو المكتبات العامة والخاصة. وهي تختلف من مرحلة لأخرى ،ومن الجدير التذكير بأن هذه المؤسسات كانت ثمرة المساهمة الاجتماعية المتراكمة مع بعض المساهمات والمبادرات لبعض الحكام العثمانيين .أولا- الأوقاف:تقوم الأوقاف على ثلاثة أركان هي :الواقف والموقوف والموقوف عليه، (فالواقف له الأهلية الشرعية للقيام بهذا التصرف ،وأن يكون المنفعة الموقوفة بينة ومعلومة ، وأن تحدد الجهة التي تستفيد من )ويكون هذا وفق صيغة موثقة تحدد صاحب الملك وأطرافه،وانتقاله وكل حيثياته<sup>1</sup>.وشكلت الأوقاف في العهد العثماني ظاهرة متميزة من حيث الانتشار والتنوع والنجاح الوظيفي لها في إدارة العديد من المؤسسات العلمية والخيرية وتمويلها، ومصدر كسب مهم للعديد من الفئات والعاملين فيها، ونعتقد أن نجاح هذه التجربة والمجال الواسع الذي مست من مؤسسات دينية واجتماعية وعائلات يعود إلى جملة من العوامل نجملها في

- 1 الرصيد الديني والتاريخي للمجتمع في إنماء الوقف وسبله
2. الانتشار الواسع للطرق والزوايا وما لها من امتداد اجتماعي وترغيب في عملية الوقف
3. رغبة بعض الحكام الأتراك في تحبيس أملاكهم أمثال الباي حسين . 1807<sup>2</sup>
- 4 - أن المذهب الحنفي الذي يتبعه الأتراك والكراغلة كان يسمح بانتفاع الموقوف وعقبه بما حبسه من وقف حتى انتفاء الورثة
5. تقفي بعض الجزائريين للأتراك في حبس أملاكهم على المذهب الحنفي لما وجدوا فيه من تسهيلات والانتفاع بها هم وعقبهم من بعدهم، رغم أنهم على المذهب المالكي.حتى قال حمدان خوجة " أن الفقهاء بالجزائر قد أجمعوا على العمل بمقتضى المذهب الحنفي الذي يجيز حبس الهبات المشروطة وذلك ليكثروا من مردود الهدايا لصالح الفقراء

6. العناية التي عرفتها الأوقاف من طرف بعض الحكام، والعلماء والوكلاء. وانطلاقاً من هذه العوامل نجد الانتشار الواسع للأوقاف، والتعلق الاجتماعي بظاهرة بها، والدور الحيوي الذي لعبته في إدارة المجتمع والدولة والعلاقة. انتشار الأوقاف وتعد الجزائر من أهم الدول التي اهتمت بالأوقاف، ولذلك صنفنا ثاني ولاية في عهد الدولة العثمانية في مجال الاهتمام بالأوقاف، وقيل أن عدد الأوقاف في مدينة الجزائر وحدها بلغ 3693 وقفاً على أنواعها من عقارات ومباني وحوانيت استفاد منها الفقراء والعجزة والأيتام، وتعليم الأطفال والكتاتيب. ودعم هذا القطاع عامة الناس وحتى بعض الحكام، وكذلك شيخ الإسلام باسطنبول إضافة إلى مؤسسات الوقف الجماعية وأشهرها إدارة سبل الخيرات والتي تسيّر وفق المذهب الحنفي. وتوجد اليوم في أرشيفات الجزائر سجلات غنية تحفظ هذا الغنى الوقفي في العهد العثماني. وكذلك في أرشيف الدولة العثمانية (وقف مالية مدور دفتر) التي توثق الإيرادات والنفقات والمشرفين عليها، وكانت الدولة العثمانية ترسل لجاناً من قبل شيخ الإسلام في اسطنبول للتأكد من سلامة الوقف، وهذه السجلات حافلة بدفاتر أملاك الأوقاف في الجزائر وشكاوي الأهالي من المشرفين على الأوقاف وما انتابها من تجاوزات. وسجلت بعض التلاعبات والغموض في تسيير الأوقاف<sup>3</sup>.

### عوامل تطور الأوقاف

1. أنشئت مؤسسات خيرية تمويلها الأوقاف تهدف إلى تحسين أوضاع الفقراء، وفي العهد العثماني فإنه حسب المذهب المالكي أن المالك لما يعهد بالوقف إلى مؤسسة خيرية فإنها تتمتع<sup>3</sup> بذلك الملك. أما في المذهب الحنفي فإن إرادة الواهب تصبح حاضرة في كيفية وقفه، كما أن الواقف لا يمكن أن يسترجع ملكه بعد المدة التي حددها للوقف ولا يستطيع الواهب أو ورثته أن يتصرفوا فيه ويصبح الانتفاع به صفة أبدية، وحسب حمدان خوجة أن الفقهاء اعتمدوا على الأخذ بهذا المذهب حتى تزداد الأملاك الموقوفة لصالح الفقراء<sup>4</sup>. ويذهب حمدان خوجة الذي عاصر المرحلة أن الأوربيين من المؤكد سيعرفون أن هذه التفسيرات والقوانين ويعرفون أنها تعتمد على مبادئ حضارية أخلاقية<sup>5</sup>. وأضاف أنه كل من وهب هبة لا يمكن أن يتراجع عنها، ويعتبر عقد الهبة أحسن وثيقة، ويحق لجميع الفقراء أن يطالبوا بالإجراءات التي لصالحهم (الإعانات) دون حق التصرف في أي ملكية

2 - ومما ساعد على تطور الأوقاف في الجزائر في هذه المرحلة أنه إذا كان المذهب المالكي لا يقبل الهبة إلا في الحياة وفي حينها فإنه في المذهب الحنفي يجيزها، وعللها بـ"نوايا المرء الحسنة من أفعاله"<sup>6</sup> وقدموا أمثلة: كحال من يسكن بيتاً طول حياته ثم تنتقل الدار إلى مؤسسة خيرية.

3 . ومن أهم العوامل التي ساعدت أيضا على تطور مؤسسات الأوقاف أنها تخضع إلى مؤسسات خيرية يقوم الحاكم على تعيين المشرف عليها ومعه جماعة من الجباة والموثقين لجمع حقوق الانتفاع وتوزيعها على الفقراء ووفقا للشروط المطلوبة ، وهؤلاء القائمين عليها يتقاضون أجورا منها لقاء متاعبهم .وبالتالي صارت هذه المؤسسات الخيرية رسمية ومنظمة ولها مسؤولين وموظفين للجمع والكتابة والتوثيق والتوزيع وتحترم كل الشروط المنصوص عليها في الوقف . فضلا على قداسة الوقف فإن إعطائه الصفة الرسمية والتنظيمية ساهم في استقراره واستمراره وضبط إيراداته ومصاريفه وعدم تعرضه للإهمال عبر السنين . كما وفرت المؤسسات الوقفية الرعاية للأموال الموقوفة من عقارات وحوانيت أو ثمار وإلا كانت أكثر عرضة للعوادي أو فعل الإنسان أو تجاوزات الملاك .وهذه القوانين والتنظيمات كانت سارية أيضا على أملاك مكة والمدينة منذ إنشاء المؤسسات الوقفية التي تكفلت بذلك<sup>7</sup>. ويبدو أن وجود المذهبين المالكي والحنفي في الجزائر في العهد العثماني ساهم في الإثراء الفقهي لقطاع الأوقاف وتعدد مصادره وأوجه صرفه ، وتراكم الأملاك الوقفية وصيانتها<sup>4</sup> حتى صارت تعم كل المدن والمدن والمدن وتغطي جوانب عديدة من المؤسسات ذات النفع العام كالمساجد والزوايا والتعليم والأضرحة ، أو انتفاع الأفراد والفئات المعوزة ، وكذلك أوقاف الحرمين الشريفين .

**المساجد** : يطلق لفظ المساجد غالبا على الأماكن التي تؤدي فيها عبادة الصلوات الخمس ، أما الجوامع فتقام فيها الجمعة ، وأما الزوايا فقد تقام الصلوات والجمعة ومكانا لأهل العلم وغالبا تنسب لولي صالح أو شيخ طريقة.ولكن كل هذه المؤسسات هي حاضنة للتعليم وتساهم في الحياة الدينية والثقافية .8 وعموما فالمسجد مكان للعبادة والتعلم ومناقشة وحل قضايا المجتمع وفق مبادئ الشريعة الإسلامية .وفي الغالب كان المجتمع هو الذي يقوم ببناء هذه المساجد ماعدا بعض المبادرات الفردية للحكام الذين بنوا المساجد أو أنفقوا عليها<sup>9</sup> أمثال محمد بن عثمان باي معسكر<sup>10</sup> الذي اهتم ببناء المساجد وحبس الأوقاف عليها وخاصة الجامع الأكبر والاهتمام بالمدرسين<sup>11</sup> أو صالح باي ، وغيرهم وهي حالات استثنائية وليست سياسة عامة للحكام .وكان غالب الحكام العثمانيين مهتمين بالجانب العسكري ورواتب الجند ضمانا للاستقرار والأمن ، دون التفريط في تقريب المرابطين واستعطاف العلماء والحرص على جعلهم يدورون في فلك السلطة<sup>12</sup> .

ومن أهم **المساجد** والجوامع المشهورة التي عرفت الجزائر في العهد العثماني الجزائر مسجد كتشاوة بالجزائر والجامع الكبير مالكي والمسجد الجديد حنفي ، وجامع الباي بقسنطينة وصالح باي بعنابة ، بمعسكر وجامع محمد الباي بمعسكر وبه مدرسة، وله أوقافا كثيرة، وجامع الباشا بوهران وجامع سيدي بومدين بتلمسان ، والجامع الكبير، وجامع محمد السنوسي ، جامع

ابن زكري ، وجامع 5 أولاد الإمام بالمدينة والجامع الكبير وجامع سيدي المزابي والجامع الأحمر .

13

**الزوايا** :تعد الزوايا مؤسسات علمية وثقافية متعددة المهام فهي للعبادة والتعليم وتحفيظ القرآن، وبها مرافق متعددة كمساكن الطلبة وأماكن المؤونة والطعام وأخرى للحيوانات المستخدمة لصالح الزاوية<sup>14</sup> وقد تزايد عدد الزوايا ابتداء من القرن السادس عشر وخاصة أن هذه الزوايا كانت تشكل رباطات للجهاد وخاصة عندما سقطت الأندلس وأصبح التهديد المسيحي الذي تبناه ملوك اسبانيا على السواحل الجزائرية.وعلى الرغم من تعدد المظاهر والممارسات الدينية للزوايا لكنها كانت تجمع حولها الكثير من المريدين والمقدمين أو الإخوان على أذكار تمايزت بين طريقة وأخرى. وفي نفس الوقت كانت تمارس التعليم لبعض العلوم الدينية، وتحفيظ للقرآن للأطفال ، وتتقاطع مع الكتابيب القرآنية من حيث المهام الوظيفية<sup>15</sup> و من الملفت جدا إلى ظاهرة الانتشار الطرقي وعلاقته بانتشار الزوايا في الجزائر الحديثة والمعاصرة فكان التصوف الذي ازداد انتشارا في العهد العثماني أن مكن العديد من الطرق الصوفية من بناء مؤسسات دينية متعددة المهام - للتعليم والعبادة وحل النزاعات - ومع تطور الأيام صارت هذه المراكز أماكن تعليمية وانتسبت لأسماء مؤسسيها أو القائمين عليها وفي الغالب هم من رجال التصوف الذين كانوا يدورون في فلك إحدى الطرق الصوفية ، وللعلم أن هذه المراكز العلمية المسماة بالزوايا قد غطت ربوع الجزائر في ارتباط وثيق بطريقة أو بأخرى.وبحكم هذه العلاقة الوثيقة بين الزوايا والطرق الصوفية وتشكيل شبكة من الانتشار على المستوى الوطني فقد ساهم في بناء منظومة مؤسساتية للتعليم والمرجعية المحلية للجماعة الإسلامية ، ومكانا لحل النزاعات والتفاضي<sup>6</sup> وكانت تؤدي وظيفة تعليمية في كثير من زواياها التي فاقت 400 زاوية في الجزائر وتخرج منها من ساهم في حفظ اللغة العربية والثقافة الإسلامية، كما أن الزوايا مؤسسات دينية واجتماعية تنتسب كل واحدة إلى طريقة معينة تجاوز امتدادها إلى عدة أقطار وبالتالي قللت من أثر العرش والقبيلة .إذ يمكن أن تجمع الطريقة عدة قبائل على أذكار واحدة وهذا مهم بالنسبة للتطور الفكري والارتباط بين مختلف المناطق<sup>16</sup> وكانت الزوايا منتشرة في العهد العثماني في الأرياف و المدن وأهمها في مدينة الجزائر :زاوية عبد القادر الجيلاني، وزاوية سيدي محمد الشريف، زاوية عبد الرحمان الثعالبي ، زاوية سيدي السعدي، وزاوية سيدي الفاسي زاوية البركاني ....أما في منطقة زاوية فقد فاقت 50 زاوية .وفي قسنطينة وضواحيها 16 زاوية<sup>17</sup> .

**المدارس** :كانت القرى والمداشر تعج بالمدارس أثناء العهد العثماني تقوم بمهام تعليم مبادئ القراءة والكتابة للأطفال .وهناك بعض المدارس العليا أو ما يشبه المعاهد في المدن الكبرى مثل تلمسان والجزائر وقسنطينة وبجاية التي كانت تقوم بمهام تحفيظ القرآن الكريم إلى جانب وبعض

العلوم الأخرى كالحديث والنحو واللغة والفقه والتوحيد واستكمال هذه الدراسات بعلم الحساب وقراءة المؤلفات الطبية 18وا إذا كان العثمانيون لم يعيروا التعليم أهمية كبيرة فإن هذا الأمر كان على كاهل المجتمع الذي تكفل به ، وإن كانت هناك بعض المبادرات لبعض الحكام أمثال صالح باي 1771م 1792- بالشرق الجزائري والذي أحياء الحركة العلمية، ووسع نطاق المعرفة والاهتمام بالمدارس والتعليم والمعاهد<sup>19</sup> . وأنشأ المدرسة الكتانية، والمسجد أو الجامع الأعظم عام 1774م، وأوقف عليه من ماله الخاص<sup>20</sup> . وكذلك محمد الكبير في بايلك الغرب الذي شجع الثقافة والمتفقيين وعزز الحركة العلمية.

ومن بين المدارس المشهورة في الجزائر العثمانية نذكر

**مدرسة مازونة:** التي كانت تقدم العلوم الشرعية كالفقه وعلم الحديث وعلم الكلام

**مدرسة القيطنة :** بمعسكر :تأسست 1787قرب بوحنيقية على يد مصطفى بن المختار بعد عودته من بغداد وكانت تمارس مختلف مراحل التعليم ومن مدرسيها العالم المعروف أبو راس الناصر مدرسة المحمدية :التي أسسها محمد باي، ووصفها أبو راس الناصر قائلاً "...: "المدرسة التي كاد العلم أن ينفجر من جوانبها "....وفي تلمسان وجد خمسين مدرسة ابتدائية و مدرستين للتعليم الثانوي والعالى (مدرستا الجامع الكبير ومدرسة أولاد الإمام ).وعند احتلال قسنطينة وجد الفرنسيون :خمسة و ثلاثين مسجدا وسبع مدارس تضم حوالي 700تلميذا يتلقون فيها تعليما ثانويا، وبها أيضا 90 مدرسة ابتدائية تضم 1350تلميذا<sup>21</sup>. وفي العاصمة كانت المدرسة القشاشية للتعليم الثانوي والعالى، وهناك مدرسة الجامع الكبير . وهناك من ذكر أنه وجد بها 100مدرسة بين ابتدائية وثانوية ومعهد عال عام 1830م<sup>22</sup> .

**المكتبات :** كان الاهتمام بالكتب والمكتبات تقليدا لدى العائلات العلمية ، كما كانت الزوايا والمدارس الكبرى تحرص على جمع أكبر عدد من الكتب وهذا قبل العهد العثماني وأثناءه ، وهناك حركة ونشاطا للنساخين وجامعي الكتب المهمة، ومن الحكام من اهتم بذلك أمثال :الباي محمد الكبير شجّع حركة التأليف والنسخ والوراقة، كما كان الوقف للكتب ونسخها حضورا كبيرا .ومن العائلات من اهتم بجمع الكتب أمثال :زعيم الدواودة والحناشنة ابن الصخري .واشتهرت حرفة الخطاطين وخاصة في المدن الكبرى مثل قسنطينة التي اشتهرت ببعض الخطاطين أمثال : أبي عبدلله العطار والشيخ إبراهيم الحركتين ومحمد الزجّاي ومن أهم المكتبات التي اشتهرت في الجزائر في العهد العثماني : ففي العاصمة وجدت مكتبة ومتحف في زاوية إبراهيم لثاوي . مكتبة الزاوية البكرية بتوات ، مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة.

وفي قسنطينة مكتبة المدرسة الكتانية . ومكتبة المدرسة المحمدية بمعسكر . وأخيرا فإنه يمكن القول بأن الحياة الثقافية في الجزائر العثمانية رغم ما وسمت به من تأخر وتقليد وإهمال

الحكام لهذا الجانب المهم في حياة الشعوب والدول فإن المجتمع الجزائري تحمل القيام بهذا الجانب وأعبائه وخاصة أنه يتعلق بتعليم وتربية أبنائه ، كما أن تقاليد المجتمع الإسلامي عامة في هذه المرحلة لم تكن ببعيدة عن هذا الحال ، ضف إلى ذلك طبيعة الحكام العثمانيين العسكرية وعدم تذوقهم البعد العلمي واللغة العربية . دون أن ننسى مبادرات مهمة لبعض الحكام كما أسلفنا .وقد ساهم في إثراء الثقافية وتعويض النقص القائم تعدد المؤسسات الثقافية من وفرة الأوقاف وتمويلها السخي لدور العلم العلماء والتكفل بطلبة العلم وتوفير الكتب ، وكذلك كثرة الزوايا والمساجد والمكتبات ، ولا ننسى الحيوية العلمية لأهل العلم وحركتهم بين الحواضر العلمية الداخلية والخارجية لمواكبة الحياة العلمية والثقافية .

### الهوامش

1. ناصر الدين سعيدوني دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر \_العهد العثماني \_، م.و.ك، الجزائر، 1984ص، 149 .
- 2 محمود عامر، الجزائر في دور الأرشيف التركية «أعمال الندوة العلمية الدولية حول كتابة التاريخ الوطني والتعريف به، المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية والثورة، العالمية للطباعة والخدمات، 2012ص 146.
3. نفسه ، ص 147.
- 4 حمدان خوجة ، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ط 2 الشركة الوطنية للطبع والتوزيع ، الجزائر ، 270.
5. نفسه
- 6 - أورد صاحب المرآة هذا النص على أساس حديث ولا ندري درجة صحته ونصه
7. حمدان خوجة ، مصدر سابق ، ص 271 .
8. للتفصيل أكثر أنظر تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري 20-16(م)، الجزء الأول، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982ص 243.
- 9 رشيدة شكري معمر ،العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر،مذكرة ماجستير في التاريخ الجزائر،2007ص 76.
10. أشار أبو راس الناص أنه بنى المسجد الكبير بمعسكر من ماله الخاص .أنظر :أبو راس الناصري ،عجائب الاسفار ولطائف الاخبار ،دراسة وتحقيق بوركبة محمد،ج1،منشورات وزارة الشؤون الدينية والاوقاف ،الجزائر ،2011،ص.32.
- 11 - اشدي و أحمد بن محمد بن علي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق و تقديم المهدي البوعبدلي، - ابن سحنون الرمنشورات وزارة التعليم الأصلي، سلسلة التراث، الجزائر، 1973، ص - 132.
12. ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1830-1792، م.و.ك، الجزائر، 1985،ص.248
- 13 - أحمد مريوش و آخرون للحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص ص 12،13.

14 - يحي بوعزيز، موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج 1 دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004 ص 201.

15 - يحي بوعزيز :المرجع السابق، ص 202

16. محمد فنانش ، "ية السياسية للحركة الوطنية الجزائرية أو للحركة الوطنية بين عقيدة الإصلاح وروح الثورة الإيديولوج "مجلة التاريخ، النصف الأول من سنة 1986، قسم التاريخ ، الجزائر ، ص 143.

17 - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري 20-16(م)، الجزء الأول، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص264.

18- أبوراس الناصري،المصدر السابق،ص48

19.سليمان الصيد :نفتح الأزهار في قسنطينة من الأخبار، المطبعة الجزائرية للمجلات والجرائد ، الجزائر، ص 35.

20.فاطمة الزهراء قشي قسنطينة في عهد صالح باي ، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، الجزائر، 2005 ص 69.

21.عبد الحميد زوزو :نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1900-1830، د.م.ج، الجزائر 2007، ص - ص 216 - 217.

22 - أبو القاسم سعد الله :المرجع السابق، ص 276.